EX PROFESSO
ISSN : 2543-3512
ISBN : 2016-856
Université Hamma Lakhdar
El- Oued

الأفعال الكلامية في رسالة الشيخ أحمد التجاني مقاربة تداولية حجاجية

أ/ أمينة تجاني
جامعة القيروان _ تونس

يتناول هذا البحث دراسة الأفعال الكلاميّة من منظور تداولي حجاجي ، متّخذا من رسالة الشّيخ أحمد التّجاني أنموذجا له، سعيا لاستكشاف الأفعال الكلاميّة الموظفة في الرّسالة والأثر الذي أحدثته في المتلقي، والدّور الذي لعبته في التأثير، ومن ثَمّة التّغيير الذي حققته في الواقع الوجودي سواء على مستوى الفكر أو السلوك ، ومدى نجاعة الشّيخ في الحجاج وتحقيق الإقناع.

الكلمات المفتاحية : الأفعال الكلاميّة، الواقع الوجودي، منظور تداولي حجاجي.

The acts of language in the letter of Eshikh Ahmed Tidjani

This paper examines the acts language in the letter of Esheikh Ahmed Tidjani , in an effort to explore the acts langage employee in the letter and the impact caused by the receiver, and the role it has played in effect, and there is a change made by actually existential both at the level thought or behavior.

Key-words : The acts of language, effect, pragmatic-argumantative approach.

مقدّمة :

يهدف هذا البحث إلى دراسة الأفعال الكلاميّة في رسالة الشّيخ أحمد التجاني من منظور تداولي حجاجي انطلاقا من قول مفاده : "أننا نتكلم عامة بقصد التّأثير". فالمتكلم يسعى إلى التأثير على المتلقي من خلال اللغة التي يتوسّلها لتحقيق ذلك، وهذا يعني أنّ اللغة تحمل وظيفة حجاجية في طياتها، تظهر في الأفعال الكلاميّة التي تعدّ من أبرز الآليّات الحجاجيّة التي تحقق ذلك لما تحدثه من أثر في المتلقي .

إنّ اللغة هي الحامل المادّي لفكر المتكلم وآرائه وهي التي يتوسّل بها لإقناع المستمع، حيث يتّخذها "وسيلة لفرض سلطة على الآخرين، من نوع استدراجهم إلى الدّعوى المعبّر عنها وإقناعهم بمصداقيّتها"[1]. وذلك لِمَا للغة من بُعْد نفسي واجتماعي قادر على جذب المتلقي والتّأثير فيه وخاصّة عندما تكون اللغة طبيعيّة بعيدة عن التّكلّف والتّصنّع والافتعال. لأنّ الهدف الرّئيس للمتكلم ليس إبراز قوّته الاستدلاليّة واللغويّة، أو الإفهام فقط بل "غايته القصوى إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار وما يعرضه من مواقف أو إغرائه بهذه الأفكار وتلك المواقف ليُحْدِث في نهاية المطاف أثرا واضحا في المتلقي لا من حيث أفكاره فحسب , بل من حيث مواقفه وما قد يكون له من سلوك واقعي ملموس "[2]. وهذا الأثر الواضح في سلوك المتلقي هو الذي تُعنى به الأفعال الكلاميّة .

وعليه فالكلمات المفتاحيّة لهذا البحث هي : الحجاج ، الأفعال الكلاميّة ، الأفعال الكلامية في الرسالة.

1 – الحجاج :

الحجاج حقيقة حواريّة تجمع بين أقطاب العمليّة التّواصليّة في تفاعل مستمر هدفه الإقناع والتأثير، لا الإرغام والإكراه، مهما يكن الاختلاف بين طرفي الخطاب (المتكلم، المتلقي) ، ويعرّف بأنّه "عمل غرضه دائما أن يغيّر وضعا قائما "[3]، أي يسعى إلى التّغيير بالطرق السّلميّة ، واللغة أفضل من يحقق ذلك؛ من خلال آليّات عديدة أبرزها أفعال الكلام، لأنّ الدّفع إلى الفعل هو أهمّ وظيفة حجاجيّة في هذا المجال، حيث يتطلّب" وعيا بآليّات من شأنها تحريك المعنيّين بالكلام صوب الفِعْل وتغييره بما ينسجم مع المقام،

وتتطلّبه مقاصد النّص وطموحات الخطيب (المتكلم أو المخاطب) بوصفه مفكّرا وحاملا لرؤية معيّنة يسعى إلى إرسالها ، أو جعلها راجحة في مواجهة حجج أخرى مناوئة"[4].

2 . الأفعال الكلاميّـة :

اهتمّت نظريّة أفعال الكلام بدراسة اللغة الطبيعيّة في جانبها الاستعمالي الفعلي ، والذي لا يعني "إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معيّن في الوقت نفسه "[5]. وقد ارتبطت هذه النّظريّة بكل من (أوستين وسورل) ، حيث اتّضحت ملامحها مع (أوستين) **Austin** .

يرى (أوستين) أنّ اللغة " ليست وسيلة للتواصل فقط وإنّما هي أيضا وسيلة للتّأثير في الواقع وتغيير سلوكنا ومواقفنا "[6]. وهذا ما جعله يهتمّ بالفعل الإنجازي لما له من قوّة تأثيريّة تلعب دورا هامّا في عمليّة الإقناع , فهو ذو "مؤثّريّة كاملة إذا تطابق الأثر النّهائي أو النّتيجة النّهائيّة مع الغرض المنشود"[7]. وبناء على القوّة الإنجازيّة قدّم تقسيما للأفعال الكلاميّة يضم خمسة أنواع هي: الأفعال الحُكْمِيّة (الإقراريّة)، الأفعال التّمرّسيّة، أفعال التكليف (الوعديّة)، الأفعال العرضيّة (التّعبيريّة) أفعال السّلوكات (الإخباريّات) . وقد تطوّرت نظريّة أفعال الكلام على يد (سورل) الذي قسّم أفعال الكلام إلى خمسة أصناف أيضا, هي كالآتي: الإخباريّات، التّوجيهيّات، الالتزاميّات (أفعال التعهّد)، التّعبيريّات، الإعلانيّات..

3- الأفعال الكلاميّة في الرسالة :

إذا انتقلنا إلى رسالة الشيخ أحمد التجاني نجد أنّه توسّل اللغة لإقناع الآخرين بأفكاره وآرائه من أجل تغيير سلوكهم في الواقع الوجودي، لأنّ اللغة ليست أداة للتّعبير عن المشاعر والأحاسيس، وعن الحاجات الخارجيّة فحسب وإنّما هي أيضا "حقيقة حواريّة يتواجه فيها عالمان لغويّان مختلفان يصيران تدريجيّا إلى التّداخل فيما بينهما"[8]. فهي تفاعل بين متكلم ومستمع ليتشاركا ويندمجا ويصبحا شيئا واحدا . هذا من جهة ومن جهة أخرى فهي فعّالة، لها وظيفة تتجاوز " كونها وسيلة تواصل إلى وسيلة تأثير في العالم والسّلوك "[9] . فمن خلال اللغة نؤثّر في الآخر وبالتالي نغيّر العالم .

واعتمادا على تقسيم (سورل) للأفعال الكلاميّة قمت بعمليّة إحصاء لعدد الأفعال التي تنتمي إلى كل قسم فكانت النتائج كالتالي :

الأقسام	عدد حضور الأفعال
التوجيهيات	114
الالتزاميات	43
الإخباريات	41
التصريحيات	18
الإدلائيات	14

وبناء على عمليّة الإحصاء التي قمت بها ألاحظ :

- **أ . التّوجيهيّـات :**

تحتل المرتبة الأولى وتسجّل أكبر نسبة حضور في رسالة الشّيخ أحمد التّجاني لاحتوائها على معنى الفعل، وهي تمثّل جميع الأساليب والجمل الإنشائيّة التي تفيد الطّلب ، وأبرزها أسلوبا الأمر والنّهي اللذان وظّفهما الشيخ بكثرة من أجل تبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطابي، والمتمثّل في "إعداد الفرد إعدادا كاملا ، وإصلاح المجتمع إصلاحا بنيويّا "[10]. لأنّ الصّوفي يعدّ نفسه صاحب رسالة ، فهو خليفة رسول الله ﷺ ولذا فهو مطالب بمواصلة تبليغ الرّسالة المحمّديّة وبإحياء الدّين في النّفوس الغافلة عن الله، اللاهية بأمور الدّنيا وشهوات الجسم . لهذا فإنّ الشّيخ أحمد التّجاني من خلال رسالته عُني بالمتلقّي أيّما عناية ، لأنّ "مهمّته تتعدّى التّأثير الجمالي البحت إلى محاولة التّأثير في البنية العقليّة والفكريّة"[11]. وبالتالي تغيير السّلوك والممارسة العمليّة اليوميّة .

إنّ أغلب الأفعال التّوجيهيّة في الرّسالة الأمر والنّهي، وهما فعلان إنجازيّان يهدفان إلى توجيه المتلقّي إلى سلوك معيّن وغايتهما واحدة؛ "فالأمر يتوسّل به إلى إتيان الفعل لأهمّيّته والنّهي يتوسّل به إلى عدم إتيان الفعل لقبحه ومنافاته للحق والصّواب"[12]. وقد استعملهما الشيخ لرغبته في تكليف المتلقي بعمل ما, أو توجيهه لمصلحته من جهة, وإبعاده عن الضّرر من جهة أخرى أو توجيهه لفعل معيّن في المستقبل.

ومثال الأمر في قوله: "فالذي أوصيكم به وإيّاي: المحافظة المحافظة على قوله ❐ : ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فأمّا المنجيات فهي تقوى الله في السّرّ والعلانية ، وكلمة الحق في الرّضا والغضب , والقصد في الغنى والفقر. وأمّا المهلكات فشح مطاع وهوى متّبع , وإعجاب المرء برأيه"[13]. فالشّيخ أحمد التّجاني هنا يأمرنا بالمحافظة على حديث رسولنا الكريم وسنّته المباركة لأنّها نبراس الحياة، وذلك بتعلمها وتطبيقها في حياتنا اليوميّة وتَمَثُّلِها في كل معاملاتنا وأقوالنا وأفعالنا. ومن ذلك يأمرنا بتقوى الله في السّر، أي في أنفسنا وفي خلواتنا لأنّ الله ناظر إلينا وشاهد علينا. وكذلك تقواه في العلن أمام أعين النّاس، فلا تكون التّقوى رهينة أعين الناس ندّعيها أمامهم فقط بل تكون لأجل الله وحده خالصة لوجهه الكريم .

كما يأمرنا بالمحافظة على قول الحق سواء أكنّا في حالة رضا أم غضب لأنّ المؤمن هو الذي يمسك نفسه عند الغضب، ويلزمها كلمة الحق مهما كان، ولا يجعله أسيرا لهواه. ويأمرنا أيضا بالقصد والتّوسّط في الغنى والفقر، فلا تبذير ولا بخل، ولا تفريط ولا إفراط، إنّما هي الوسطيّة التي تجعل المؤمن يعيش السّعادة الأبديّة .

كذلك من صور الأمر في الرّسالة ، قوله : "وعليكم بشكر النّعم الواردة من الله بسبب أو بلا سبب . وقوله: فأعلى ذلك شكر اللسان، تلاوة الفاتحة في مقابلة ما أنعم الله عليه شكرا. ولْيَنْوِ عند تلاوتها أنّه يستغرق شكر جميع ما أحاط به علم الله من نعمه عليه"[14]. فهو يأمر المتلقّي بشكر نعم الله عليه الظّاهرة والباطنة، التي لا تعدّ ولا تحصى لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾[15] . فالشّيخ أحمد التّجاني يقول بأن كل "وعد في كلام الله تجده مقرونا بالمشيئة إلا الشكر"[16]، لقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[17]

ففي هذه الآية لم يقرن الله سبحانه وتعالى الشكر بالمشيئة الإلهيّة ، بل وعد كل شاكر بالمزيد من النّعم وأكده بلام القسم ونون التّوكيد .

كما يؤكد الشّيخ على ضرورة التزام العبد الشكر، فيقول: " أقرب الأبواب إلى الله باب الشّكر ومن لم يدخل في هذا الزّمان على باب الشّكر لم يدخل"[18]. وذلك لاعتناء الحق – عز وجل– بشأنه؛ حيث لم يربطه بالمشيئة بل من شدّة اعتنائه به أنْ قدّمه على الإيمان في قوله تعالى :﴿ **مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ** ﴾[19]. فالله تعالى لا يعذّب المؤمن الشّكور، وما أحوجنا في هذا الزّمن إلى تعلّم الشّكر لله !

إنّ الأمر قرين النّهي في هذه الرّسالة ، لأنّ "الأمر خليق وسفير الخير والنّهي وسيلة للرّدع عن الشّر وإبعاده أو التّنفير منه والتّحذير منه "[20] . ومن أمثلة **النّهي** قوله : "**والحذر الحذر لمن تحرّك عليه شرّ النّاس منكم أن يبادر إليه بالتّحرّك لمقتضى حرارة طبعه وظلمة جهله وعزّة نفسه**"[21] . يحذّر الشّيخ أحمد التّجاني المتلقّي من مقابلة شرّ النّاس بالشّرّ لأنّ ذلك يؤدّي إلى كثرة الشّرور في الدّنيا وإتاحة الفرصة للشّيطان في التّفريق بين المسلمين ونشر العداوة والبغضاء بينهم، وهذا لا ينفع المؤمن في دنياه ولا في آخرته. وفي مقابل هذا التّحذير وجّه سلوكنا الوجهة الصّحيحة المتمثّلة في مقابلة الشّر بالإحسان أو بالعفو أو بالإعراض، والتّوجّه إلى الله بالتضرّع لرفع الأذى لأنه الوحيد القادر على ذلك .

كذلك النّهي في قوله: "**وأحذّركم أن تتهافتوا في المعاملات المحرّمات شرعا تهافت الجهلة من العامّة**"[22]. فهو يحذّر وينهي المخاطَب عن الوقوع في المحرّمات الماليّة وخاصّة في الأسواق كالغشّ والتّدليس والكذب في تقويم الأثمان وما إلى ذلك من الأمور التي يحاول بها العبد إشباع رغباته وأهوائه في الغنى مهما كانت السّبل، حتى ولو كانت في إسقاط الأحكام الشّرعيّة في المعاملات. وهذا يؤدّي إلى أضرار تتمثل في تخبّط اقتصادي بالنسبة للدّولة ، وأكل مال حرام بالنسبة للفرد يضرّ به وبأهله دنيا وأخرى لقوله ❐: "ما نبت من حرام فالنار أولى به". كذلك إحلال غضب الرّب وسخطه عن العباد وما يتبع ذلك من عقاب دنيوي عاجل أو عقاب أخروي آجل .

وخلاصة القول إنّ طغيان الفعل الكلامي التّوجيهي في رسالة الشّيخ أحمد التّجاني كان ذا طاقة حجاجيّة فاعلة ساندت الشّيخ في إقناع المتلقي بـ" التّخلي عن صور الانحراف

والتّحلي بأساليب الفطرة من عقل وحق"[23] . لأنّ أسلوبي الأمر والنّهي "نابضان بالإثارة قادران على تحريك الوجدان وإحداث ما ينشد المتكلم تحقيقه في المتلقي"[24]، من تغيير سلوكه إلى الأفضل. وقد استعمل الشّيخ هذه الآليّات . الأمر والنّهي التّوجيهية "للسّيطرة على مجريات الأحداث، والسّيطرة على ذهن المرسَل إليه وتسيير الخطاب تجاه ما يريده"[25]. لأنّ هدفه هو تنشئة الأفراد تنشئة روحيّة، وبناء الشخصيّة الإسلاميّة الحقيقيّة، وتكريس الانتماء الدّيني فالإنسان "كيان ووجود قابل لأن يُصطنع ويُبنى لبنة لبنة، وجزءا جزءا. وكما ينمو جسده ذاتيّا فإنّ روحه قابلة للسّمو إن هو تعهّدها بالرّعاية والسّقاية شأنها شأن الجسد سواء بسواء"[26].

- **ب . الالتزاميـات : (أفعال التّعهّد)**

احتلت هذه الأفعال الإنجازيّة المرتبة الثّانية في الرّسالة بعد الأفعال التّوجيهيّة لأنّ توجيه السّلوك وجهة معيّنة يتطلب التزاما ووعدا من المتكلم حتى يكون الإقناع أسهل والتّأثير أكبر والاستجابة أسرع . وهي تعني إلزام المتكلم نفسه بإنجاز فعل مستقبلي ، أي يلتزم "بفعل شيء تجاه المخاطَب طوعا. وتمثّله أفعال الوعد والوعيد والضّمان والإنذار"[27] ، وهي أفعال تختلف عن سابقتها الطّلبيّة لكونها تتّجه نحو المتكلم ، في حين أن الأفعال التّوجيهيّة متوجّهة نحو المخاطَب.

وقد وردت الأفعال الالتزاميّة في الرّسالة غير مباشرة ، لأنّ الشّيخ أحمد التّيجاني لم يلزم نفسه بإنجاز أفعال الوعد والوعيد بل يَعِد المتلقي بأنّ الله سبحانه وتعالى هو المنجز وعده . وقد جاءت هذه الأفعال على شكل مدح للفاعل في الأوامر أو عقاب له في النّواهي أو إظهار العاقبة في الأخير بعد ذكر الأمر أو النّهي "وهذه الأمور دالة على طلب الفعل في الأمور المحمودة، وطلب التّرك في الأمور المذمومة"[28]. فهي إذن ذات طاقة حجاجيّة تعضد الأفعال الكلاميّة التّوجيهيّة وتساند المتكلم لتحقيق هدفه، يقول (أوستين): "يجوز إيقاع التّهديد أو التّخويف...في الحالات التي يمكن فيها أن نحثّ الآخر أو نقنعه أو نجعله يطيع أو يعتقد في أمر ما"[29] ومن أمثلة ذلك في رسالة الشّيخ أحمد التّجاني:

الوعد في قوله : "إنّه لو فزع إلى الله بالتّضرّع والشّكاية واعترف بعجزه وضعفه لرفع الله عنه ضرر الخلق ، أو يشغلهم بشاغل يعجزون عنه وإمّا أن ينزل عليه اللطف العظيم أو الصّبر الجميل"[30]. وهنا يتمثّل الوعد الذي يغري المتلقي بالفعل، بل يدفعه إليه دفعا طمعا في نيل هذا الوعد الصّادق. فمن اجتنب الشّر ولم يقابله بالمثل ولجأ إلى الله – سبحانه وتعالى– بالشكوى والتّضرّع، رفع الله عنه أذى الخلق وكفاه شرّهم ، يقول تعالى:﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾[31] وذلك بشغلهم بمصائب تنزل عليهم، أو يلطف به فيكون الأذى والشرّ أقل وقعا عليه، أو يلهمه الصّبر فيصبر على أذى غيره دون عذاب، وهذا هو الوعد . كأنّ الله هو القائل : أحسن لمن ظلمك أو اعف عنه أو أعرض عنه، أرفع عنك أذاه وأكفيك شرّه وأنزل بك لطفا عظيما وصبرا جميلا . وما أحوجنا اليوم إلى إنجاز هذه الأفعال حتى نحظى بدفاع الله عنّا ولا نتولى ذلك بأنفسنا ! يقول تعالى:﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذِينَ آمَنُوا ﴾[32].

كذلك الوعد في قوله : "ويتلو بهذه النّيّة ما قدر عليه من الفاتحة من مرّة إلى مائة فمن فعل ذلك كتبه الله شاكرا وكان ثوابه المزيد من نعمه على قدر رتبته بحسب وعده الصّادق"[33]. فالشّيخ هنا يمدح الفاعل لفعل الشّكر ويعده بالثّواب الجزيل، فمن يشكر الله باللسان ويكثر من تلاوة الفاتحة بنيّة الحمد والشّكر، كتبه الله من الشاكرين. وهذا المدح والوصف يثير النّفوس والقلوب لإنجاز فعل الشّكر لأنّ ذلك ينزل العبد منزلة عظيمة عند الله تعالى قليل من يدركها، لقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[34]. وليس هذا فحسب بل هذا الفعل– الشكر– يكون سببا في زيادة النّعم لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[35] فما أعظم هذا الوعد الصّادق! وعد بزيادة النّعم من عند قادر قدير، جواد كريم، مالك الملك ومَنْ بيده خزائن السموات والأرض، فتخيُّل هذا الثّواب ومقداره دافع قوي بل محرّض شديد لإنجاز هذا الفعل والتزام هذا السّلوك .

أمّا من أمثلة **الوعيد** نذكر قوله: "**فمن تمنّى بقلبه أو أراد تحريك الشّرّ منه على النّاس سلّطهم الله عليه من وجه لا يقدر على دفعهم**"[36]. وهذا تهديد صريح وتخويف لمن قابل الشّرّ بالشّرّ، ونهض ينتصر لنفسه بحوله وقوّته بأنّ الله – سبحانه وتعالى –

يسلّط عليه شرورا أكثر وأذى أكبر من النّاس لا يستطيع دفعه، بل لا يقدر على العيش هنيئا بسببه. وهذا ما يجعل العاقل الكيّس يتجنّب هذا الفعل .

كذلك ذكر العقوبة في قوله : "فإنّ المبادر للشّرّ بهذا وإن كان مظلوما فاضت عليه بحور الشّرّ من الخلق، يستحقّ الهلاك به في الدّنيا والآخرة ، وتلك عقوبته لإعراضه عن جناب الله"[37]. يوضّح الشّيخ أحمد التّجاني عقوبة المبادر للشّرّ حتى وإنْ كان مظلوما ، لأنّ المظلوم له ربّ ينصره، وإذا دعاه استجاب لدعوته لقول رسول الله ﷺ : "واتَّقِ دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب "[38]. وأمّا إذا أعرض عن مولاه وانتصر لنفسه بنفسه عوقب بالغرق في بحور الشّرّ والفتنة، وهلك في الدّنيا والآخرة . وهذه العقوبة تنفّر المتلقّي من هذا الفعل خوفا من وقوعها، وتجعله يغيّر سلوكه بالالتجاء إلى الله في كل صغيرة وكبيرة، وهذا هو مراد الشّيخ من خطابه الذي يركّز فيه على البعد الروحاني والأخلاقي للإنسان .

وخلاصة القول إنّ الوعد والوعيد "يهدف إلى الإصلاح وإيقاظ العقول ، وله مقاصد تتمثل في التّأثير على أفكار المتلقّي وأفعاله وجعله يخضع لأوامر الله ونواهيه "[39]. وقد استعمله الشّيخ أحمد التّجاني في رسالته عن قصد ووعي كبير؛ لأن الوعد يدفع بالمتلقي للقيام بالفعل طمعا في الفوز به، والوعيد كذلك يدفع بالمتلقي لاجتناب الفعل خوفا منه. وقيام المخاطَب بالفعل المحمود واجتناب الفعل السّيء المذموم يعني تغيير سلوكه للأفضل والأحسن، وهذا هو مراد الشّيخ وهدفه الذي يسعى إليه دائما .

- **ج . الإخباريـات :**

احتلت المرتبة الثالثة في رسالة الشّيخ أحمد التجاني، وهذا أمر طبيعي لأن توجيه المتلقي وجهة معيّنة والالتزام نحوه بوعود متنوّعة يستلزم أوّلا وقبل كل شيء إخباره بالأمر الذي يجهله وإشراكه في صميم القضيّة المعبّر عنها. لهذا فالإخباريّات تنسجم مع "منطق التّلقّي حيث تقتضي إقامة الحجّة على المنكر أن يعرف أوّلا، وهنا يتحقّق قانون الإفادة, الوسيلة المنطقيّة "[40] التي تسبق أو تعقب الأوامر والنّواهي. إذن لابدّ من معطيات إخباريّة يتوسّل بها المتلقي لضمان إنجاز الفعل , فالقيام بالفعل يكون مرتبطا " بمدى قوّة القاعدة

الاستدلاليّة من ضامن (ثواب الله أو عقابه) وسند (الآية) ليقيم بها الحجّة البالغة في الإقناع والتّأثير معا وحمل الآخر على القيام بالفعل"[41].

ففي قول الشّيخ أحمد التّجاني في الرّسالة : "وأما ثواب الآخرة فبالفوز بما لا غاية له من ثواب الصّابرين الذي وعده الله تعالى"[42]. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾[43]. وقوله أيضا :﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[44]. وقال تعالى حاكيا عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام:﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾[45]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ ﴾[46].

يوجّه المتلقي إلى الصّبر على أذى النّاس إلى أن يرد عليه الفرج من الله تعالى وغايته في ذلك حمله على فعل ما أمره به. ولضمان إنجاز هذا الفعل التّوجيهي قدّم معطيات إخباريّة عن الذين فازوا فوزا عظيما جزاء صبرهم كفوز اليهود بوراثة الأرض بعد غرق فرعون الذي أذاقهم شرّ العذاب، كذلك فوز سيّدنا يوسف – عليه السّلام – بعد صبره على أذى إخوته وعلى عذاب السجن بالنّبوة والحكم . فهو بذكر هذه الإخباريّات يسعى إلى "تثبيت الحجّة بطريقة تفيد تقرير الحقائق "[47]. فالمذكورون في الآيات السّابقة من الفائزين حقيقة واقعة ، وكل من نَهَجَ نَهْجَهم في الصّبر ففوزهم نتيجة حتميّة لا مناص عنها . وقد تسعى الإخباريّات إلى"الإفهام وتوضيح بعض الظّواهر ضمنيّة كانت أم تصريحيّة "[48]، أو إلى الوصف كذلك .

ففي قول الشّيخ : "إنّ العامّة لا يرون في تحريك الشّر عليهم إلا صورة الشّخص الذي حرّكه عليهم لغيبتهم عن الله – سبحانه وتعالى – وعن غالب حكمه فنهضوا في مقابلة الشّرور بحولهم واحتيالهم وصولة سلطان نفوسهم, فطالت عليهم مكابدة الشّرور وحُبسوا في سجن العذاب على تعاقب الدهور"[49]. يصف حالة الشّخص الذي ينهض لمقابلة الشّرّ بحوله واحتياله، وذلك لاستحضار صورة ممكنة لمخاطَبه تجعله يتخيّل تلك الصّورة الفظيعة بأنّه في سجن، وكل مَنْ فيه يتعرّض له بالضّرب وبالشّتم أو حتى محاولة القتل، وكل ما يمكن لمخيّلة المتلقي تصوّره . فعن طريق هذه الصّور المتخيّلة استطاع الشّيخ أحمد التّجاني أن يجعل الأفعال الكلاميّة الإخباريّة "ذات قوّة إيحائيّة وإغرائيّة ، وفعّالة في رسم المشهد الذي يوقظ الإحساس وينبّه الهمم"[50]. لأنّ الوصف هنا "يومئ إلى الفعل المبتغى

والسّلوك المرجوّ لتحقيق الهدف "[51]، والمتمثّل في تغيير الفرد من مسلم عدواني يظلم غيره إلى مسلم حقيقي يترفّع عن إذاية الخلق ويصبر على شرورهم طمعا في مرضاة الله ورسوله

د ـ التصريحيّــات :

احتلت المرتبة الرّابعة في رسالة الشّيخ أحمد التّجاني حيث بلغت ثمانية عشر (18) فعلا كلاميّا , وهو عدد قليل مقارنة بالأفعال الكلاميّة التّوجيهيّة لأنّ الشّيخ ليس في معرض تهنئة أو تعزية أو ما إلى ذلك , بل هو معلّم يوجّه تلاميذه الوجهة التي يريد من خلال إقناعهم بالحجج والأدلة العقليّة التي تضمن تغيير سلوكهم دون إكراه أو قسر.

إنّ التّصريحيّات تقتضي التّصريح والتّعبير عن حالة سيكولوجيّة (نفسيّة) معيّنة, وقد وردت في الرّسالة في ذكر الشّيخ للكَيِّس العاقل مورد مدح وإعجاب لأنه استطاع " أن يجعل الجسد والروح يتواكبان ويساهمان في عملية تجسيد الحقائق الروحيّة "[52]. من خلال رؤيته لأذى النّاس ابتلاء ومحنة من الله – سبحانه وتعالى–, وهي رؤية باطنيّة روحيّة تجسّدت عمليّا في الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل، ومراد الشّيخ هنا هو تفاعل الظاهر والباطن (الجسد والرّوح) في الحياة اليوميّة, وتغيير السّلوك في اتّجاه تطوّري وتقدّمي بما يضمن إصلاح المجتمع إصلاحا بنيويّا .

يقول الشّيخ أحمد التّجاني : "فإنّ الكيّس العاقل إذا انصبّ عليه الشّر من النّاس , أو تحرّكوا له به , رآه تجلّيا إلهيّا لا قدرة لأحد على مقاومته إلا بتأييد إلهي , فكان مقتضى ما دله عليه علمه وعقله الرّجوع إلى الله بالهرب والالتجاء إليه وتتابع التضرّع والابتهال لديه والاعتراف بعجزه وضعفه"[53].

إن مدح الشّيخ للكَيِّس العاقل وإن لم يكن ظاهرا فهو يفهم ضمنيّا من خلال الكلام، فكأنّه يقول : لله درّ الكيّس العاقل الذي إذا انصبّ عليه الشّر من النّاس رآه تجليا إلهيّا . والمدح هنا فعل إنجازي ذو طاقة حجاجيّة قويّة تغري المتلقي وتثيره لأنْ يكون هو الكيّس العاقل الذي قصده الشّيخ . ولأجل تحقيق ذلك يحاول تغيير سلوكه بما يناسب ذلك . كما مدح الشّيخ أحمد التّجاني السّعيد الذي إذا سُلب نعمة من نعم الله في الدنيا رآها بعين قلبه

مصيبة وقعت على فعلة معيّنة , فينتبه من غفلته ويتوب عن فعله رجاء مرضاة الله ولم ينظر إليها بعين رأسه , بأنّه حُرم نعمة ما فيتذمّر ويتشكّى وبذلك يخسر دنيا وأخرى .

فالشّيخ هنا يقول للمتلقي : حبّذا تكون هذا السّعيد المتيقّن لكل ما يصيبه فيذكّره بالله ويُرجعه إليه, وليس غافلا, تائها في الحياة الدنيا؛ حيث يقول : "**والسّعيد إذا وقع في شيء من هذه الأمور، يرى عن قريب تعجيل العقوبة ، ويرى التّنبيه في قلبه من الله أنّ هذه المصيبة وقعت على تلك الفعلة**"[54]. فالفعل الكلامي هنا (حبّذا تكون هذا السّعيد) جاء غير مباشر لاستثارة انتباه المخاطَب وإيقاظ عقله وتحريك همّته للوصول إلى هذه الدّرجة العظمى عند الله وهي السّعادة لأنّ النّاس بين شقيّ وسعيد , فطوبى للسّعداء .

هـ . الإدلائيّــات :

احتلت الإدلائيّات المرتبة الأخيرة في ترتيب الأفعال الكلاميّة في رسالة الشّيخ أحمد التّجاني بحضور بلغ تواتره أربعة عشر (14) فعلا كلاميا , وربما هذا يعكس قلة المخاطَبين الذين يمتثلون أوامر الشّيخ ونواهيه التي هي في الحقيقة أوامر الله ونواهيه , ويجسّدون الحقائق الروحيّة فعليّا في الواقع المَعِيش لأنّ ذلك صعبا جدّا إلا على من أراد وجه الله بإخلاص وصدق .

إن الإدلائيّات تعمل على مطابقة المحتوى القضوي للخطاب مع العالم الخارجي , وقد وردت في الرّسالة في قول الشّيخ : "وأحذّركم لكل من خوّله الله نعمة , أن يمدّ يده بها فيما لا يرضي الله مثل شراء الخمر والوقوع في الزّنا , ومدّ اليد بها في المعاملة في الرّبا, أو صرفها في وجوه طلب الرّياسة والسّلطنة, أو في طلب إذاية المسلمين, من سفك دمائهم ونهب أموالهم أو هتك حريمهم ، أو بإذايتهم ولو بأقل قليل ، فإنّ الفاعل لهذه الأمور بما أنعم الله عليه ، مستحقّ لسلب النّعمة من الله ، مع ما يُعرض له من مقت الله وغضبه .[55]"

إنّ الفعل الكلامي الذي قصده الشّيخ هنا هو التّحذير من استغلال نِعَمِ الله في معصيته لأنّ ذلك إثم كبير, والنِّعَمُ يجب أن تُقابل بالشّكر لقوله تعالى :﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ** ﴾[56]. ثم يُعلن تحذيره من شراء الخمر، والزّنا, والرّبا في المعاملات الماليّة, وسفك

الدماء ونهب الأموال وهتك الحريم, لأنّ مقارفة هذه الممارسات يستوجب غضب الرّب ومقته الذي يحتّم وقوع العقاب , والذي قد يكون فرديّا أي على الفرد فقط أو جماعيّا على الأمّة عامّة، وما حدوث الحروب والزلازل والفيضانات إلا دليل على ذلك.

وتكمن قوة الأفعال الإدلائيّة في مطابقتها للعالم الخارجي, أي عندما نتكلم نفعل، فالشّيخ أحمد التّجاني لمّا حذّر مخاطبيه من اقتراف المعاصي المذكورة في الرّسالة فإنّ فِعْلَهم يتجلى حقيقة في الواقع بتجنّب الخمر والزّنا والرّبا والقتل والسرقة والقذف... وقصد الشّيخ هنا تغيير الواقع الاجتماعي إلى الأحسن "فباستعمال الإعلانات, يُغيّر المتكلم العالم عبر كلمات"[57]. وهنا تظهر مقدرة الشّيخ الحجاجيّة , وبراعته في إنتاج خطاب له فعل إقناعي وتأثيري على الآخر من خلال وعيه الكامل بهدفه وقصده والتّخطيط الدّقيق لتحقيق ذلك والاختيار المحكم للأفعال الكلاميّة التي تخدم غايته الحجاجيّة .

إنّ ترتيب الإدلائيّات في الأخير له طاقة حجاجيّة لها قوّتها المؤثّرة لأنّ فيها يطابق القَوْلُ الفِعْلَ ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بعد توجيه السّلوك الظّاهري توجيها يناسب التّربية الرّوحية التي ينشدها الصّوفي , فإذا تَمَّ تغيير السّلوك وتَوَافَق الظّاهر مع الباطن طابق القَوْلُ الفِعْلَ في العالم الخارجي , وهذا هو النّظام الصّوفي الذي يمثّله الشّيخ أحمد التّجاني، " نظام عرفاني سلوكي أعطى للحاجات الرّوحيّة الأهميّة في كل فعل, وأضفى عليها معنى جوهريّا في رؤية العالم وتصوّر الحياة الاجتماعية "[58].

وخلاصة القول إن الأفعال الكلاميّة الموظّفة في الرّسالة لها قوّة حجاجيّة تظهر في الأثر النّاتج عن القول، وهذا الأثر يتجلّى من خلال ردّة الفعل الواقعة أو المفترضة للمتلقي الذي يمثّل الطّرف الثّاني المشارك والمحاور, لهذا فإنّ خطاب الشّيخ يمكن اعتباره حوارا مع مختلف أصناف المخاطَبين لأنّ هدفه إقناع الآخر دون إكراه .

إن موضوع الإقناع هو فعل الصّورة الحجاجيّة وغايتها , وقد حقّقت الرّسالة هذا الفِعْل "بواسطة قوى أفعال الكلام المنجزة من خلال العبارات وما تحقّقه بدورها من آثار ونتائج مهما كانت صفتها, فإنّ إيقاعها يبقى إقناع الآخر, ليس من باب إحداث الغلبة لطرف على حساب الآخر, ولكن من أجل الحوار والتواصل"[59].

الإحالات والهوامش :

1- محمد العبد, النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظريّة وتطبيقيّة محكمة في الخطابة الجديدة، إشراف:حافظ إسماعيل علوي، منشورات ابن النديم، الجزائر، ط1، 2013، ج2, ص709، 710 .

2- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث هجري، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1, 2007، ص 35 .

3- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص43.

4- هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه, دراسة تطبيقية في كتاب المساكين للرافعي, رسالة ماجستير، إشراف: جمال كديك جامعة ورقلة, 2003/2002، ص 30 .

5- فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، تر:سعيد حسن بحري، القاهرة، مصر، ط 1، 2001، ص18.

6- علي آيت أوشان , السياق والنص الشعري "من البنية إلى القراءة", مطبعة النجاح الجديدة,المغرب ط1، 2000, ص63 .

7- فان دايك , النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي, تر:عبد القادر قنيني, إفريقيا الشرق, الدار البيضاء، المغرب د.ط , 2000، ص

8- طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1995، ج1، ص 110.

9- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص 94 .

10- محمد بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، نحو تأويلي تقابلي، الدار العربية للعلوم لبنان، ط 1، 2010، ص59.

11- نصيرة صوالح، الصوفية من خطاب الفتنة إلى فتنة الخطاب، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، ع 2، 2004، ص 74 .

12- محمد مشعاله، الاغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة، رسالة دكتوراه، إشراف:عبد القادر دامخي، جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر، 2009 / 2010، 216 .

13- علي حرازم بن العربي برادة الفاسي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تح: محمد الراضي كنون، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2011، ص 649 .

14- المرجع نفسه، ص 651 .

15- سورة النحل، الآية 18 .

16- عبيدة بن سيدي محمد الصغير الشنقيطي، ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية، دار التجاني، الوادي، الجزائر، ط1، 2009، ص 65، 66 .

17- سورة إبراهيم، الآية 7 .

18- عبيدة بن سيدي محمد الصغير، ميزاب الرحمة الربانية، ص 65 .

19- سورة النساء، الآية 147 .

20- محمد مشعاله، الاغتراب عند الإمام علي، ص 216 .

21- علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ص 650 .

22- المرجع نفسه، ص 653 .

23- آمنة بلعلى، الإقناع : المنهج الأمثل للتواصل والحوار، نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث العربي، ع 89، محرم 1424، 23مارس 2003، ص 208 .

24- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث هجري، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2007، ص 153.

25- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004، ص 352 .

26- محمد سعيدي، بناء الإنسان في الفكر الصوفي الإسلامي، مجلة حوليات التراث، ع1، 2004، ص 116

27- حكيمة بوفرومة، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم مقاربة تداولية، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ع 3، 2008، ص16 .

28- المرجع نفسه، ص 16 .

29- أوستين، نظرية أفعال الكلام، تر:عبد القادر قنيني، افريقيا للشرق، المغرب، 1990، ص137 .

30- علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ص 650 .

31- سورة الزمر, الآية 36 .

32- سورة الحج, الآية:38.

33- علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ص 652 .

34- سورة سبأ، الآية 13 .

35- سورة إبراهيم، الآية 7 .

36- علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الاماني، ص 649 .

37- المرجع نفسه، ص 650 .

38- يحي بن شرف النّووي، رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين، اعتنى به: محمد علي قطب، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة جديدة، 2005، ص74 .

39- حكيمة بوفرومة، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، ص 17 .

40- آمنة بلعلى، المنهج الأمثل للتواصل، ص 212 .

41- المرجع نفسه، ص 229 .

42- علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ص 650 .

43- سورة الأعراف , الآية 137 .

44- سورة الأنفال , الآية 46 .

45- سورة يوسف , الآية 90 .

46- سورة النحل , الآية 126 .

47- حكيمة بوفرومة، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، ص 17 .

48- آمنة بلعلى، المنهج الأمثل للتواصل، ص 231 .

49- علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ص 651 .

50- محمد مشعاله، الاغتراب عند الإمام علي، ص 201 .

51- المرجع نفسه، ص 201 .

52- عبد الحفيظ غرس الله، التصوف الإسلامي والغيرية، مجلة حوليات التراث , ع4, 2005، ص41 .

53- علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ص 651 .

54- المرجع نفسه، ص 652 .

55- المرجع نفسه، ص 652 .

56- سورة الرحمن، الآية 60 .

57- جورج يول , التداولية , ص89 .

58- عبد الحفيظ غرس الله، التصوف الإسلامي والغيرية , ص37 .

59- آمنة بلعلى , المنهج الأمثل للتواصل, ص206.